Impact Factor (SJIF): 4.714 E-ISSN: 2583-1615

International Journal of Research in Academic World

Received: 05/January/2023 IJRAW: 2023; 2(2):07-08 Accepted: 07/February/2023

النقد العربي بين الذوق والعلم

*[1]Dr. Hafiz Syed Badiuddin Sabri

*[1]Professor & Head, Department of Arabic, Osmania University, Hyderabad, Telengana, India.

الأساليب المختلفة..... وليس علم الجمال ولا علم النفس ولا أي علم في الوجود إنما هو الذوق الأدبي، و هذا شيئ ليس له مرجع يرجع إليه''.[4]

و يقول مندور مؤكدا على رأيه أن هذا الذوق اعتمد به ابن سلام و الآمدي كما اعتمد به لانسون (Lanson) عميد النقد الموضوعي في فرنسا المعاصرة.[5]

و كذالك يشدد أحمد أمين على الذين يبحثون في الأدب بحثا نظريا خالصا متأثرين بالفلسفة فيقول: ''إن هؤلاء العلماء حاولوا تغليب الفلسفة على النقد الأدبي و حاولوا أن يبحثوا الأدب و مسائله بحثا نظريا مجردا، و كانوا في محاولتهم هذا مخطئين، فللفلسفة طبيعة و للأدب طبيعة أخرى مغايرة، و من ضياع الوقت أن نحاول تعليل الجميل والبحث في السرفي أنه يستدعي الإعجاب، فذلك أمر يقوم على الذوق المحض والذوق لا يعلل، فالجميل هو ما يعده الإنسان جميلا، أما أن نحاول إيجاد نظريات و قواعد لابد من توافرها في الشيئ لكى يكون جميلا فهو عبث لا فائدة فيه.[6]

و قال الدكتور أحمد كمال زكى: إن النقد الأدبي نفسه ليس علما، ذلك أن العلم إذ يحدثنا عن العالم الحسي، يتحدث النقد عن الأدب الذي يتحدث عن الإنسان و عما يفعله في هذا العالم حديثا ذاتيا قوامه الوجدان و إذن فالموضوعية نسبية.[7]

و أما النقاد المحدثون الذين اعتمدوا على الذوق فهم يعتمدون على ذوق العالم الخبير بالأدب و أساليبه لأن الذوق يترقى و ينحط كما يوجد الفرق بين ذوق الطفل والرجل و ذوق الحضري و القروي فالقروي الذي لم يأخذ بحظ قليل من المدنية يميل إلى الثياب الألوان القوية والكثيرة و أما الحضرى الذي هو متمدن يعجبه الألوان الخفيفة المتناسقة و كذلك تعجب الشعب المنحط قطعة أدبية لايعجبه الأديب الراقى من ناحية فنية.

و إن الذوق يترقى بالتربية و كثرة المران، كما أن مندور يقول بعد تقديم القول المذكور آنفا: ''إن الذوق ليس معناه ذلك الشيئ العالم المبهم التحكمي، و إنما هو ملكة إن يكن مردها كلكل شئ في نفوسنا إلى أصالة الطبع، إلا أنها تنمو و تصقل بالمران''.

و إن الذوق عندهم ليس ملكة بسيطة تصدر عن العاطفة فحسب بل هو مزيج من العاطفة والعقل و الشعور و الذكاء، والذوق أيضا خاضع للبحوث العلمية فيقول أحمد أمين: ''فليس الحكم النقدى يصدر اعتباطا أو يلعب فيه بالألفاظ، و إنما هو مبني على ذوق خاضع للبحث العلمي''.[8]

و موجزا لبحث أن معظم النقاد في العصر الحديث لا يرون في تحكيم الذوق خطرا على النقد.

الاختلاف في الحكم:

الذوق يختلف باختلاف البيئة والحضارة فيمكن أن نصا أدبيا يعجبه أهل عصر واحد ولا يعجبه أهل عصر آخر، فلذا يختلف الحكم باختلاف الأذواق، من عصر إلى عصر كما أن الذوق القديم قانع بطبيعة الاستعارات و العبارات المسجعة، والذوق الحديث يعمد إلى سلالة الكلمات و العاطفة والخيال و الأسلوب و غير ذلك، و هذا الاختلاف في الحكم يرجع إلى الذوق العام لشعب من الشعوب، و لكن نرى هذا الاختلاف في الحكم على نص من النصوص الأدبية في بين أفراد زمن واحد أيضا و هذا يرجع إلى الذوق الخاص لكل فرد كما نرى في الناس من يفضل اللون الأحمر لأنهم يتذكر به الورود الحمراء الجميلة، و فيهم من يبغض هذا اللون لأنه يذكرهم بدماء القتلىٰ، و كذالك النقاد مختلفون حسب أذواقهم في تفضيل من الكلام على الآخر.

نحمده و نصلي على رسوله الكريم وعلى آله و صحبه أجمعين.

إن كلمة الذوق أكثر الكلمات دورانا على ألسنة النقاد في جميع العصور بما يصدرون من أحكام حسب أذواقهم، و جرى الخلاف بين النقاد حول هذه المسئلة ''أن النقد ذوق أم علم؟''

و قبل أن نأخذ في البحث عن ذلك ينبغي لنا أن نعرف الذوق: وما هو الذوق؟

الذوق في اللغة ملكة تدرك بها طعوم الأشياء، و في الإصلاح أداة الإدراكات التي تثير في نفس المتذوق لذة فنية، و أريد من ''الذوق الأدبي'' الملكة التي يقدر بها الأديب من حيث هو فن.

و العلم هدفه تحصيل الفائدة و تقرير الحقائق معتمدا على العقل والنطق، و بخلاف ذلك أن الذوق مجاله الفن، والفن ما يدرك بالذوق والحس والوجدان والشعور، والذوق بحكمه على الأشياء لا يستند على أحكام عقلية فمثلا إذا قلنا بعد رؤية صورة: إنها جميلة، فمعنى ذلك أنها تعجبنا و تلائم ذوقنا ولا يمكن أن نقول إن هذا حق أو باطل كما نقول في الحقائق العلمية. و ذهب عدد من النقاد إلى أن النقد أقرب إلى الفن من العلم فالذوق عندهم وسيلة النقد الأدبي و غايته. و ذهب بعضهم أن النقد أقرب إلى العلم من الفن و منهم من سلك مسلك الاعتدال يقول إن النقد بين الذوق والعلم فنذكر آرائهم فيما يلي:

النقد ذوق:

الذوق هو المرجع الطبيعي الأول في الحكم على الآداب والفنون، و الأدب و نقده ذوق و فن قبل أن يكون معرفة و علما، ولما ألف ضياء الدين بن الأثير كتابه ''المثل السائر'' في أدب الكتابة والشعر-وهو في الحقيقة كتاب للنقد القديم-فقال في مقدمته ينبه إلى أن هذا العلم لا يغني عمن لا يوجد فيهم الذوق السليم.

''إعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار العلم البيان على حكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم، و هذا الكتاب و إن كان فيما يمليه عليك أستاذا، و إذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا، فإن الدربة و الإدمان أجدى عليك نفعًا، و أهدي بصرا و سمعًا، و هما يريانك الخبر عيانا، و يجعلك عسرك من القول إمكانا، و كل درجة منك قلبا و لسانا''.[1]

و من الأدباء العرب القدامى الذين نادوا بالذوق الجاحظ و الصاحب بن عباد والبحترى، ولقد فطنوا إلى أن النقد شيئ مستقل عن كل علم آخر، و إن قوامه الذوق و أن أقدر الناس عليه هم الشعراء والكتاب، و كان رأيهم وجوب تنحية الأدب و نقده عن العلم.[2]

و كذا كان رأى عبدالقاهر الجرجاني أن أساس النقد هو الذوق ولكنه فوق ذلك يرى أن النقد ملكة الإحساس الروحاني فيقول: ''إن المتذوق لفنون الأدب لا يكتسب آلة ذوقه من المتابعة والمدارسة و إن كانت المتابعة والجرى وراء المعرفة ضرورة تتفتق بواسطتها كمائم الإحساس الروحاني عما يسمونه ملكة النقد في الحكم والمفاضلة، و على هذا فإنه بإمكانك، إذا كنت ممن يملك آلة الفهم والذوق، أن تبين مزايا قطعة فنية لعديد من البشر ممن لايملكون الثراء في الذوق والوقدة في الإحساس.[3]

و من النقاد في العصر الحديث الدكتور محمد مندور و الأستاذ أحمد أمين و الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي و أحمد الشائب و غيرهم، أكد على أهمية الذوق و هؤلاء يرون النقد ذوقا و إحساسا و موهبة.

و على الخصوص هاجم مندور و أحمد أمين على الذين يرون ضرورة معرفة العلوم الإنسانية من نفس و جمال و اجتماع و فلك و تاريخ و غير ذلك للنقد الأدبي فيقول مندور: ''النقد هو فن دراسة النصوص الأدبية والتمييز بين

قوية منظمة، هو هذه الثقافة العامة المتقنة التي لا يستطيع أن يستغني عنها طالب الأدب، كما لا يستطيع أن يستغنى عنها طالب الكيمياء، بل كما لا يستطيع أن يستغني عنها كل إنسان يريد أن يعيش عيشة راقية في بيئة راقية.....، و عالم الأدب أو باحثه لا يمكن بالضرورة أن يطالب بالإحاطة التامة بكل هذه النواحي، و لكن يفرغ لكل واحدة منها طائفة من الأخصائيين، و يعتمد الأديب في بحثه على خلاصة ما ينتهى إليه هؤلاء الأخصائيون من النتائج العلمية''.[13]

و لما طالب الدكتور الأدباء باتخاذ جميع الوسائل للنبوغ في الأدب فالنقاد محتاجون إلى معرفة العلوم المتعلقة بالأدب أكثر منهم، و أشار سيد قطب إلى الجمع بين الذوق و الأصول للنقاد فيقول: ''لا بد من استخدام الوسائل الفنية البحتة المعتمدة على الشعور و الذوق و على القواعد الفنية المباشرة المتصلة بأدوات الفن و طرائقه في التعبير و الأداء''.[14]

و هناك بحث آخر يتفرع من هذا المضمون أن النقد خاضع للقواعد أم لا، و شك بعض أن النقد ذوق فكيف يخضع للأصول و القواعد، و اعترض بأن الأدباء الكبار يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا في الحكم على القطعة الفنية و كذلك يختلفون في أشعر الشعراء، أيهم أفضل؟ جرير أم الفرزدق أم الأخطل، و أيتهما خير: مقامات الحريري أم مقامات البديع.

و أجيب عن هذا الاعتراض أن هذا الاختلاف البسيط لا يؤثر في وضع المقاييس والقواعد لأننا إذا رجعنا إلى آراء النقاد عن النصوص و تقديرهم للشعراء و جدنا أن ما اتفقوا عليه أكثر مما اختلفوا فيه فمثلا لا يوجد شك بينهم في أن الفرزدق والجرير و الأخطل كلهم أكبر شعراء عصره، و لا اختلاف في أن مقامات البديع فيها مزايا و عيوب كما في مقامات الحريري كذالك، و كثير من مثل هذا الاتفاق دليل على أن هناك معاني و مقاييس في نفوس الأدباء الذين يصدرون هذه الأحكام المتفقة.[15]

و إذا كان النقد الأدبي فنا وجب أن يخضع لقوانين الفن مثل الفنون الأُخرى كما أن هذا المثل مشهور ''لا يحيا الفن بغير قيود'' و هذه القواعد مستمد بعضها من الفلسفة و بعضها من علم الجمال، و بعضها من علم النفس، و بعضها من التاريخ، و بعضها من الأخلاق، و لكن هذه القواعد ليست قاطعة و جازمة و دقيقة بل هي تتصل بالعموميات الكبرى، و فيها مرونة يستطيع الناقد أن يستخدمها حسب الضرورة مع مراعاة ذوقه و مواهبه الخاصة، و أن قواعد النقد الأدبي لم تنضج و لم يتم تحديدها مثل قواعد العلوم الأُخرى لأن النقد في مرحلة الرقي والتطور باستمرار.

المصادر والمراجع

1. المثل السائر لابن الأثير، ص:٣
2. مجلة الأقلام، الجزء الثالث، السنة السادسة، شوال، ١٣٨٩هـ ، ص:١١٧
3. مجلة الأقلام، الجزء السادس، السنة الثانية، ص:١٢٣
4. في الميزان الجديد، ص:١٦٢
5. راجع التفصيل في الميزان الجديد، ص:١٦٣- ١٦٧
6. النقد الأدبي لأحمد أمين، ص:272
7. النقد الأدبي الحديث لمحمد غنيمي هلال، ص:7
8. النقد الأدبي، ص:13
9. العمدة لابن رشيق، ص:100/1
10. مجلة الأقلام، الجزء الثالث، السنة السادسة، شوال، 1389هـ، ص:188
11. مجلة الأقلام، الجزء الثالث، السنة السادسة، شوال، 1389 هـ: ص:188
12. دراسات في النقد العربي الحديث لمحمد عبد المنعم خفاجي، ص:19
13. في الأدب الجاهلي لطه حسين، ص:13، 14
14. النقد الأدبي لسيد قطب، ص:109
15. راجع التفصيل في النقد الأدبي لأحمد أمين، ص:13

و كيف يؤثر الذوق المتباين على الاختلاف في الحكم نستطيع أن نرى فيما يلى:

قالت طائفة من أهل الأدب: الشعراء ثلاثة: جاهلي، و إسلامي، و مولد.

فالجاهلي إمرؤ القيس، و الإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز.

و هذا قول من يفضل البديع و بخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر.

و تقول طائفة أخرى: الجاهلي: الأعشى، و الإسلامي، الأخطل، والمولد: أبو نواس.

و هذا مذهب أصحاب الخمر و ماناسبها، و من يقول بالتصرف و قلة التكلف.

و قال قوم: الجاهلي: مهلهل، والإسلامي: ابن أبي ربيعة، و المولد: العباس بن الأحنف. و هذا قول من يؤثر الأنفة و سهولة الكلام، والقدرة على الصنعة و التجويد في فن واحد.[9]

و كذلك تؤثر الحالات النفسية و العواطف و المشاعر المختلفة في أذواق النقاد، فالعاشق يؤثر النسيب و القوي يفضل الحماسة، و الزاهد يحب أبا العتاهية، و الصوفي ابن الفارض، و الحكيم يفضل المتنبى، والفيلسوف يحب المعري، و من غلب عليه عنصر الفكر آثر شعراء المعاني أمثال أبي تمام و ابن الرومي و غيرهما و من كان شديد الحس فضل أسلوب البحتري و شوقي و أمثالهما.

النقد علم:

قالت طائفة من النقاد: و إن النقد علم، و من أدباء القدامى من نادى بأن النقد مجموعة من الأصول و القواعد كقدامة بن جعفر في كتابه ''نقد الشعر'' و ابن المعتز في كتابه ''البديع'' كما أن هؤلاء الأدباء حصروا النقد في علوم البلاغة من البيان و المعاني و البديع، و قد أصبح العلماء لا يستجيدون الكلام إلا بما حوى من ضروب التحسين البديعي، و من النقاد المحدثين الذين ينكرون على أصحاب الذوق و يدخلون في النقد أصول الفلسفة الجمالية و النفسيه و العلوم الاجتماعية و غيرها كالدكتور محمد أحمد خلف الله و الدكتور محمد النويهي و مصطفى عبد اللطيف السحرتي و غيرهم، و كان خلف الله متشددا في مسلكه و قال خلف الله يبحث عن الفلسفة الجمالية في النقد: ''و إن باحث الأدب-سواء أراد أم لم يرد- سيظل يبحث عن الذوق، و اختلافه و ذاتيته، و موضوعيته، و سيظل يبحث عن الفن و خصائصه، و مثله العليا، و كيف تختلف قصيدة عن قصيدة، و رواية عن أُخرى، و صورة عن صورة في نواحي التأثير و الجمال، و في اختصار يبقى لنا ''أن الناقد بلا فلسفة جمالية كالملاح بلا خارطة، و لا بوصلة، و لا معرفة بالملاحة''.[10]

و قال خلف الله يشنع على من يخالف علم النفس في النقد: ''فالناس معذورون إذا نظروا إلى هذا العلم بعين الريبة، والذوقيون من النقاد و الناشئين معذورون إذا رأوا في إدخال هذا العلم في ميدان الأدب عبثا جديدا يثقل كاهل النقد العربي بعد ان أثقلته-في نظرهم-تقسيمات الأقدمين، و تحليلاتهم و تعريفاتهم، غير أن لهم أحيانا منطقا مسليا حقا، فهم يرفضون الاستعانة بعلم النفس في فهمهم للأدب، و لكنهم لا يسمعون ناقدا يتناول ناحية سيكلوجية حتى تثور ثائرتهم لرأي يقول له هو عن دراسة و تحقيق، و يرفضونه على أساس الالف و العقيدة''.[11]

و من الأدباء الأوروبيين الذين يقررون النقد علما، الناقد الفرنسي تين فيقول ''يعتبر النقد الأدبي علما يسير على مناهج مدروسة''.[12]

النقد بين الذوق و العلم:

المذهب الصحيح في هذه المسئلة أن النقد لا يستغنى عن أصول و قواعد كما لا يستغني عن الذوق السليم بل النقد بين الذوق والعلم، كما يرى الدكتور طه حسين أنه ''لا بد للأديب الناضج من معرفة بخلاصة ما ينتهي إليه العلم و العلماء، و لذلك يقرر أن هناك شيئا أساسيا لا لدراسة الأدب وحده، بل لكل دراسة علمية